

الواقع التراثی الدینی والتحویر العصري الفنیفی سدومیات خلیل حاوی

أحمد نھیرات (الأستاذ المساعد، جامعة كردستان)، جمیل جعفری^۱ (الأستاذ المساعد، جامعة كردستان)

تاریخ الوصول: ۲۰۱۹/۰۱/۲۰

تاریخ دریافت: ۱۳۹۷/۱۱/۳۰

تاریخ القبول: ۲۰۱۹/۰۳/۳۰

تاریخ پذیرش: ۱۳۹۸/۰۱/۱۰

صفحات: ۱۰۷-۱۲۸

الملخص

وردت قصة «سدوم» وأهلها في التراث الديني لتبين عاقبة الذين لم ينصاعوا لأوامر النبيين ولا سيما المنحرفين جنسياً واستدعاها خليل حاوي وعصرها في ثلاث قصائد. باستخدام الأسلوب الوصفي-التحليلي، لقد قمنا في البحث بتبيين الجذور التراثية الدينية لبعض الفواصل في القصائد، وكيفية عصرة الشاعر للقصة بإسقاطها على الواقعين الاجتماعي والسياسي في الوطن العربي، وكيفية استغلالها للتعبير عن الرؤى التشاؤمية، ثم بيان التحوير الفني فيها. تبدو نظرة الشاعر المتشائمة جلية في القصائد، واعتمد الشاعر فيها على التعبير الرمزي عن موضوع السيادة في الوطن العربي، وعن رسوبات القديم، والأفكار الرجعية بنظرة ساخطة؛ فصب جام غضبه على الحكام لظلمهم واستبدادهم، وعلى الشعوب لركونهم وانصياعهم للمستبدين. النتائج تشير إلى تحليل حاوي باستخدام تقنية التناص وباستدعاء التراث الديني، قارن بين عرب الأمس وعرب اليوم وحاول أن ينقد المجتمع العربي ويبين سلبياته من تحلف وركون وانصياع للمستبدين، كما أنه نقد الواقع السياسي وضعف الحكام وعدم أهليتهم للسيادة. ونفسية الشاعر في هذه القصائد مرت بثلاث مراحل ففي القصيدة الأولى «سدوم»، تبدو نظرتة متشائمة إلى الوجود وفي القصيدة الثانية «عودة إلى سدوم» هناك تغيير جذري في نظرتة، إذ نلمس شيئاً من التفاؤل والأمل، وأخيراً في القصيدة الثالثة «في سدوم للمرة الثالثة»، سرعان ما يذوي هذا التفاؤل ليحلّ محلّه شؤم جديد.

الكلمات الرئيسية: قصة سدوم، الرمزية، التشاؤم، العصرة، الشعر العربي، خليل حاوي.

واقعيت ميراث دينی و بازآفرینی نوین و هنری آن در سدومیات خلیل حاوی

أحمد نھیرات (استاديار دانشگاه كردستان)، جمیل جعفری (استاديار دانشگاه كردستان)

چکیده

در میراث دینی، با ذکر داستان سدوم و ساکنان آن، به بیان عاقبت انحراف جنسی پرداخته شده و عاقبت منحرفان به تصویر کشیده شده است. نویسنده معاصر، خلیل حاوی نیز این داستان را در قالبی نوین و با بیانی متناسب با عصر حاضر، در سه قصیده بیان نموده است. در این مقاله، با استفاده از شیوه تحلیلی-توصیفی تلاش شده است تا ریشه های تاریخی و دینی این داستان در برخی از بخش های قصاید حاوی بیان شده و چگونگی مناسب سازی آن با قالب های داستانی عصر نوین، توضیح داده شود و نیز هدف حاوی از بیان بدبینانه در قصاید تبیین گردد. دیدگاه شاعر در این قصیده ها کاملاً بدبینانه و متشائم است و شاعر با استفاده از بیان نمادین، به مسأله حاکمیت در سرزمین های عربی اشاره نموده و به ته مانده های کهن گرایی و افکار ارتجاعی، با ناخرسندی نگریسته است. وی بیان آتشین خود را علیه حاکمان به دلیل اعمال استبداد و ظلم، و علیه مردم به سبب کرنش در مقابل جور و ستم، گشوده است. با توجه به نتایج می توان بیان داشت که شاعر، در قصاید خود سه رویکرد متفاوت دارد: در قصیده اول «سدوم» دیدگاه وی کاملاً بدبینانه و آمیخته با سرگشتگی، اضطراب و مرگ است. در قصیده دوم «بازگشت به سدوم» در دیدگاه او تغییر اساسی رخ می دهد و خوش بینی و امیدواری به خیزش عربی، جای بدبینی را می گیرد. اما دیری نمی باید که این خوش بینی در قصیده سوم «سدوم برای بار سوم» به بدبینی بدل شده و یأس فضای قصیده را آکنده می سازد.

واژگان کلیدی: داستان سدوم، نمادپردازی، بدبینی، نوگرایی، شعر عربی، خلیل حاوی

١ - المقدمة

١-١- إشكالية البحث

لا شك أن الأدب يعد مرآة للتجارب التي يمر بها الأديب والشاعر وإنه يعكس ما يختلجه من الأحوال والنفسيات في هذه المرآة وينقلها للناس بأحسن تعبير وأكثره تأثيراً. وهناك كثير من الشعراء والأدباء من يتطرق إلي ذكر الأحداث الماضية وما جاء فيها من عاقبة الشعوب الظالمة والذين لم يستجيبوا لدعوة الأنبياء ولم ينصاعوا لمحجة الله؛ وإن الشاعر يجعلها مبني رصينا لبيان معتقده ويتمسك بها لنقد الواقع السياسي والثقافي والقومي فهو بهذه الطريقة يريد أن يثير مشاعر المخاطبين ويصور لهم عاقبتهم في حال عدم استجابتهم للطريقة القويمة.

وشاعرنا خليل حاوي يعد من الشعراء الكبار الذين استقوا تجاربهم من الماضي فله ديوان شعري تطرق فيه إلي ذكر الأحداث التاريخية في العصور الغابرة فإنه بهذا العمل يحاول أن يؤصل تجربته الشعرية وأن يجعلها أكثر مصداقية. ولعل سبب هذا العمل يعود إلي الذوق الشعري الحديث وإلي التماشي مع الحركة الشعرية الجديدة من أجل ترقية المجتمع البشري.

هناك ثلاث قصائد في ديوان خليل حاوي جاءت علي هذا الغرار ويأتي الشاعر فيها بذكر تاريخ قديم لقوم جاء ذكرهم في الديانات الإبراهيمية أي اليهودية والمسيحية والإسلام ففي الكتب المقدسة لتلك الديانات أشير إلي قصة سدوم وما اعترى أهلها من عذاب وهوان بسبب ابتعادهم عن الطريق القويم وأحكامهم في الموبقات والملذات الجنسية. ومطالعة هذه القصائد الثلاث، تطرح إشكالية نفسها وهي تدور حول قصد الشاعر من استخدام قصة دينية واستدعاءها في أدبه فيظهر هذا السؤال الهام: ما هو الغرض من إتيان الشاعر بهذه القصة في شعره؟

١-٢- أسئلة البحث

بواسطة هذا البحث نبتغي الإجابة عن السؤالين التاليين:

١. لماذا تطرق خليل حاوي إلي ذكر قصة تاريخية عريقة واستحضرها في شعره؟
٢. ما هي الدلالات الاجتماعية والسياسية التي رمز إليها خليل حاوي خلال عصرتهلهذه القصة؟

۱-۳-اهداف البحث

للبحث هدفان:

۱. كشف سبب استحضر خليل حاوي لقصة قوم لوط الدينية في شعره؛
۲. بيان كيفية عصرنة الشاعر لهذه القصة مبيناً دلالاتها الاجتماعية والسياسية خاصة.

۱-۴-خلفية البحث

هناك دراسات اعنتت بشعر حاوي وأشبعته بحثاً وتحليلاً؛ لكننا لم نعثر على دراسة مستقلة عن سدوميته، وجذورها التراثية، ودلالاتها العصرية، وتحويراته فيها، وما حملها من مضامين حسب رؤاه السياسية، والاجتماعية، والفنية؛ فأفردناها في هذه الدراسة.

لقد صدر أخيراً (٢٠١٧) كتاب بعنوان "البنية الفكرية في القصيدة" ١ المؤلفه سلطان الزغلول، من منشورات دار الآن ناشرون وموزعون، تطرق الباحث فيه إلى مواضيع مختلفة من ضمنها التوازي مع النص الديني في قصيدة سدوم (ص ٥٣) وإعادة إنتاج الرمز في قصيدة عودة إلى سدوم (ص ٥٨)، ففي خلال صفحات قلائل، يشير الكاتب إلى التناص الديني في قصيدة سدوم وإلى الرمز وغرض الشاعر من توظيفه في القصيدة الثانية.

صدر أخيراً أيضاً (٢٠١٧) كتاب آخر من تأليف محمد عبدالرحمن يونس، بعنوان "أسطورة شهریار وشهرزاد في الخطاب الشعري العربي المعاصر" ٢ لناشره شركة E-Kutub البريطانية المسجلة في إنجلترا. يحاول المؤلف في قسم منه (ص ١٠٥) تحت عنوان شهریار في «عودة سدوم» للشاعر خليل حاوي و في خلال ٦ صفحات، أن يتطرق إلى تداعيات قصة شهرزاد وإلى علاقة هذه القصة بالتخلف والهوان والاستكانة والهوادة والخضوع السائدة على الشعوب العربية ومدتها. المؤلف يستخرج موتيفات عدة من القصيدة مثل شهرزاد وخاتمها السحري واستكانتها لرغبات شهریار ونزواته، سفر أيوب ورمزيته للخنوع وعدم الثورة تجاه المصائب، ونار بروميثيوس ورمزيتها للنار المطهرة للجرائم والذاكرة التاريخية الفاسدة.

توجد مقالة فارسية بعنوان "بررسی نمود اگزیستانسیالیسم در شعر خليل حاوي"، من تأليف حسين ناظري وکلثوم صديقي، في مجلة شناخت النصف سنوية الفلسفية، المتشرة بمركز الأبحاث

١. مع الأسف لم نعثر إلا على بعض صفحات من الكتاب عن طريق محرك جوجل للبحث عن الكتب (www.books.google.com).

٢. مع الأسف لم نعثر إلا على بعض صفحات من الكتاب عن طريق محرك جوجل للبحث عن الكتب (www.books.google.com).

للعول الإنسانية رقم ٦٤/١، ضمن صفحات ١٢٧ إلى ١٥٧، حيث تطرق الباحثان فيها إلى الرؤي الوجودية لدي خليل حاوي وبمحتاها في العناوين التالية: فكرة الموت والخوف منه في شعر حاوي، علاقة الموت باقتراف الذنب، علاقة الارتباك والقلق باقتراف الذنب، الاهتمام بالزمان كالمحور الرئيسي للوجود، وتجليات الشعور باليأس والقلق في العالم المعاصر.

هناك مقالة بعنوان "شعر خليل حاوي بين الحضارة والأسطورة"، لمؤلفيها صدام فهد الأسدي وجعفر عبدالحسين عامر، التي انتشرت في حولية المنتدي، تشرين الأول ٢٠١٦، المجلد الأول، الإصدار ٢٧، وضمن صفحات ١١ إلى ٣٩؛ تناول فيها الكاتبان بعد إشارة عابرة إلى حياة حاوي، موضوع إصابة الحضارة العربية بالدمار والمعاناة والجمود ثم تطرقا إلى مسألة معاناة الإنسان في شعر خليل حاوي وبمحتا عن أسبابها. ثم انتهى بهما المطاف إلى أن انتماء حاوي إلى أسرة فقيرة وروحه القومية العالية والاحتلال الصهيوني للأراضي الفلسطينية، من أهم حوافر رؤية الشاعر التشاؤمية وشعوره باليأس تجاه الإنسان والحضارة العربية.

توجد مقالة أخرى بعنوان "التناس الديني في شعر محمد القيسي و خليل حاوي (دراسة ونقد)" لتيسير محمد الزيادات، انتشرت بمجلة القسم العربي بجامعة بنجاب الباكستانية ضمن عدد الحادي والعشرين سنة ٢٠١٤، خلال صفحات ٥٧-٨٤، حيث قام الكاتب بمقارنة بين الشاعر المسلم محمد القيسي والشاعر المسيحي خليل حاوي وسعي أن يعلل سبب إتيان القيسي بالتراث الديني اليهودي وسبب إكثار حاوي من التناس القرآني في أدبه وفي النهاية يستخلص أن التناس الديني لم يخضع للديانة عند الشعارين وبعبارة أخرى لا فرق بين الكتب المقدسة عندهما.

هناك مقالة بعنوان «أشكال التناس الديني في شعر خليل حاوي» من تأليف الدكتور علي نجفي أيوكي والسيدة فاطمه يكانه في مجلة دراسات في اللغة والعربية وآدابها السنة الثانية العدد السادس صيف ١٣٩٠ هـ ش، خلال صفحات ١٣٩ إلى ١٧٠؛ في المقالة إشارة عابرة ضمن صفحتين (١٤٨ و١٤٩) إلى قصيدة سدوم (القصيدة الأولى) وفيها تطرق الباحثان إلى سبب اختيار حاوي لعنوان سدوم والأغراض التي يرمي إليها الشاعر في تناصه هذا، ثم إنهما يستنتجان أن سدوم قامت مقام المدينة العربية أو مقام لبنان والشاعر استدعاها ليرمز إلى دمار الوطن العربي ولبنان خاصة. في مجال آخر للمقالة، تطرق الباحثان في شرح قصيدة «الأم الحزينة» إلى المقارنة بين عرب الأمس المناضلين وعرب اليوم الخاملين المتخاذلين؛ فيتضح لنا أن المقالة مع أهميتها لم تفرد بالبحث الذي نحن بصدهه ولم تغطّ

الموضوع تغطية كاملة.

عثرنا علي مقالة أخرى بعنوان «الصور الإشارية (التناصية) للموت عند خليل حاوي» في مجلة العلوم الإنسانية الدولية؛ العدد ۱۹ (۴) ۵۵-۷۲ سنة ۲۰۱۲م- ۱۴۳۳هـ ق للكاتب: علي بشيري وآخرين، عاجلت المقالة موضوع الموت برؤية إنسانية عامة وبتحليل عقلي صرف دون أن تتوسع بالبحث فيما نحن فيه من دلالات قصة سدوم في شعر حاوي.

هناك مقالة أخرى للكاتب أحمد نهيّرات بعنوان «إسقاط التجربة القصصية الإنجليزية على الواقع السياسي العربي في شعر خليل حاوي (قصيدتا لعازر ۲۶۹۱ والأم الحزينة نموذجاً)» وطبعت في مجلة دراسات في العلوم الإنسانية الدولية، ۲۰۱۵- ۱۴۳۶ هـ. ق، العدد ۲۱ (۲) ۲۱-۳۸- صص ۲۱-۳۴. تناولت المقالة نقد الشاعر للواقع السياسي باستحضار قصتين من التراث المسيحي وإسقاطهما على واقع السياسية والسياسيين في الوطن العربي وكان الشاعر في استحضاره القصتين ناقماً على السياسة وأهلها، ناقداً لها بجرأة وصراحة.

۱-۵- منهج البحث

المنهج المتبع في البحث منهج وصفي-تحليلي ومن خلاله قمنا بتفحص الجذور التراثية للقصة في منابعها الدينية الأصلية (من القرآن، والكتاب المقدس) ثم مقارنتها بما جاء به خليل حاوي عنها في قصائده وما أحدثه فيها من تغيير للكشف عن كيفية عصرنتها في شعره. تجميع البيانات تم بواسطة المنهج المكتبيواستخدام الفيشات الورقية. والمجتمع الإحصائي للبحث يشمل الأعمال الكاملة لخليل حاوي، كما أن حجم العينة يحوي القصائد الثلاث أي "سدوم"، "عودة إلى سدوم"، و"في سدوم للمرة الثالثة".

۲- المفاصل التراثية في السدوميات وتحويراتها العصرية في ديوان خليل حاوي

سعى الشاعر خليل حاوي أن يرفع من المستوى الإنساني لدى متلقي شعره باستقائها من منابعها الأصلية وفي إسقاطها على الواقع الراهن؛ «والمثقف اليوم هو الذي يعي روح العصر، ويندمج في تياره، ويساهم عن طريق الكلمة والفكر من أجل زيادة معارف الناس وصقل وجدانهم، وجعلهم بالتالي أكثر إنسانية سواء من حيث العمل أو الإحساس» (منيف، ۲۰۰۳: ۷۳). فجاء خليل حاوي بقصة سدوم في شعره؛ فالسرد القصصي كثير شائع في جميع الآداب، لأنّ في ذلك إشباعاً لرغبة أهل الأدب الفطرية؛ «ونحن ندرك أنّ السرد القصصي يشبع لدى الكاتب والقارئ ميلاً فطرياً إلى تذوق العراك والمآسي في

العلاقات بين الكائنات» (شريم، ١٩٨٧: ١٥).

تناول الشاعر قصة سدوم في ثلاث قصائد؛ في القصيدة الأولى "سدوم"، يحوم اليأس على كل شيء. الشؤم يبدو مائلاً بكل وضوح، والشاعر يبدو فيها مبغضاً للحياة ومظاهرها، يائساً منها، واحتوت القصيدة على كثير من المفردات السلبية. في القصيدة الثانية "عودة إلى سدوم" يبدو الشاعر متفائلاً، فيترأى تفاؤله من خلال أمله بإمكانية عدول الشعوب العربية عن التخلف والبدء في مرحلة جديدة من النهوض والبعث. في القصيدة الثالثة القصيرة، "في سدوم للمرة الثالثة"^٣ يندم الشاعر على تفاؤله الذي أبداه في قصيدته الثانية، فيستدرك ما بدر منه من تفاؤل فيها، فيعود إلى تعبيره المتشائم ومعتقداته القاتم. وقد عكس الشاعر في هذه القصائد مفاصل ثلاثة من القصة هي: رسالة النبي لوط (ع)، وشدوذ قوم لوط الجنسي، والانتقام الإلهي منهم؛ وقد كان الشاعر متأثراً فيها بما جاء في التراث الديني من التوراة، والقرآن.

أما الموضوع الأول أي: رسالة النبي لوط (ع)، فيستحضرها الشاعر لنقد القيادات العربية الراهنة الفاشلة والتي يعتبرها ضعيفة لا تقدر على القيام بواجبات القيادة من جرأة وحكمة؛ فيطالب بظهور قائد فذّ يحل محلّها فيخلص الشعوب العربية ممّا هم فيه من تخلف وفشل و....

أما الموضوع الثاني أي: شدوذ السدوميين، فيستحضره الشاعر لأمرين؛ أولاً: ليصبّ جام غضبه على الشعوب العربية لركوئهم على الفسق والفجور وانصياعهم للفساد المسيطر على أوطانهم. ثانياً: ليرفع من همم الشعوب العربية ومعنوياتهم ويستنهضهم للخلاص من تخلفهم بتحذيرهم من مغبة الخذلان والقبول بالفساد بسكوئهم فيهلكون كما هلك السدوميون قبلهم بفسادهم.

أما الموضوع الثالث أي: العذاب الإلهي، فيستحضره الشاعر للتعبير به عن رؤاه التشاؤمية ويأسه من تحسّن الوضع الراهن. هذا الموضوع أخذ السهم الأوفر من سدومييات خليل حاوي.

٢-١-١-٢- الرسالة والسيادة

٢-١-١-٢- رسالة النبي لوط (ع) في التراث الديني

رسالة النبي لوط (ع) من أهم ما أكّد عليها القرآن وقد أشار إليها في مواضع عدة، منها ما جاء في سورة الصافات، تبين أوجهها من رسالته (ع): ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (صافات/١٣٣) وقد احتوت الآية على أدوات تأكيد كثيرة لتثبيت رسالته؛ كما تبين سورة الشعراء تكذيب قومه رسالته: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ

١. هذه القصيدة (٢٤ سطرا) تقع في ديوان خليل حاوي ضمن مجموعة نهر الرماد، في صفحة ٧٠١.

٢. هذه القصيدة (٤٩ سطرا) تقع في ديوان خليل حاوي ضمن مجموعة نهر الرماد، في صفحة ٧٤١.

٣. هذه القصيدة (٣٢ سطرا) تقع في ديوان خليل حاوي ضمن مجموعة من جحيم كوميديا، في صفحة ٧٥٥.

لُوطِ الْمُرْسَلِينَ» (الشعراء/ ۱۶۰) فلم ينساقوا لها؛ رغم معرفتهم به معرفة تامة فهو منهم وأخوهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء/ ۱۶۱).

أما الكتاب المقدس فقد قصّ زيارة الملائكة للنبي لوط (ع): «فَجَاءَ الْمَلَائِكَةُ إِلَى سُدُومَ مَسَاءً، وَكَانَ لُوطٌ جَالِسًا فِي بَابِ سُدُومَ. فَلَمَّا رَأَاهُمَا لُوطٌ قَامَ لاسْتِئْذَانَهُمَا» (التوراة، سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: ۱) ما يدلّ على أنّ لوطاً (ع) كان نبياً يوحى إليه حسب رأي الكتاب المقدس.

۲-۱-۲- صورة السيادة في الوطن العربي في السدوميات^۱

الجانب الرسالي والقيادي في قصة النبي لوط (ع) صار المنطلق الذي من خلاله تطرق الشاعر إلى قضية السيادة في الوطن العربي، صورة العلاقة فيما بين النبي لوط (ع) وشعبه أهدت الشاعر بأن يتطرق إلى القيادات في الوطن العربي من جهة والشعوب العربية من جهة أخرى؛ لكن الشاعر في اسقاطه للقصة على الواقع السياسي الراهن قد أحدث تغييراً جذرياً فيها. فالقصة التراثية تقول: كان هناك شعب منقاد لأمياله النفسية لا يبالي بالأخلاق أهمية وقد انخرط في مستنقعات الفسق والفجور؛ فأرسل الله سبحانه النبي لوطاً (ع) لتخليصهم من الفسق وإرشادهم، لكن السدوميين أبوا الانصياع له؛ بينما الصورة في سدوميات حاوي تنقلب تماماً، إذ تتراءى فيها شعوب عربية مضطهدة تريد الخلاص لكنها تعاني من قيادات تقف حجر عثرة في طريقها.

إذن؛ في القصة التراثية، شعب مأسور بأيدي الشيطان وقيادة حكيمة غير مطاعة، وفي قصة خليل حاوي، شعوب عربية مضطهدة تريد الخلاص وقيادات جبارة تمنعه من ذلك. يقول إسماعيل: «ومهما تكن الرموز التي يستخدمها الشاعر ضاربة بجذورها في التاريخ، ومرتبطة عبر هذا التاريخ بالتجارب الأساسية النمطية، فإنّها حين يستخدمها الشاعر المعاصر لا بد أن تكون مرتبطة بالحاضر، بالتجربة الحالية، وأن تكون قوتها التعبيرية نابعة منها» (إسماعيل، ۲۰۰۷: ۲۰۰).

۲-۱-۲- الشعوب المحكومة وضعفهم النفسي

الاثامات الكثيرة لقوم لوط في التراث الديني صارت منطلقاً ينطلق منه الشاعر لتوجيه اتهامات مماثلة للشعوب العربية؛ علّه يصيبهم في صميم غيرتهم فيستنهضهم للخروج ممّا هم فيه من ركون وركود؛ فبدأ الشاعر بتحليل نفسية الشعوب العربية وبيان واقعهم المزري لتبيين مواقفه السياسية.

في المقطع التالي، يبيّن الشاعر الحالة النفسية السيئة للعرب بالإشارة إلى مهنتهم الدنيئة وأعمالهم

۱. سدوم اسم قرية سكنها لوط والتي خسفها الله بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاسد وفق ما جاء في النصوص الدينية.

الساقطة، فهم ليسوا إلا بغايا ولصوصاً، ابتعدوا عن القيم وسقطوا في الهاويات من بغي وسرقة:
خَلَّفْتُهُم غزواتُ الشرق والغرب/ لصوصاً وبغايا/ خرقاً ممسحة في فندق الشرق
الكبير (حاوي، ١٩٩٣: ١٥١)

يقول عبدالرحمن يونس في هذه القصيدة: «وداخل فضاء هذا الواقع المنحط تتناسل السبايا والبغايا
واللصوص، إنه واقع ألف ليلة وليلة، واقع الغزو والسطو، واقع تتلاقى فيه كل أخطاء الشرق وغاباته
المظلمة مع شهوات الغرب ونزواته المتتهكّة» (عبدالرحمن يونس، ٢٠١٧: ١٠٩). ويقول الزغلول:
«حولتهم الغزوات لصوصا وبغايا يستعبدهم غزاة الآفاق وشذّاذها بل إنهم لم يعودوا إلا: خرقا ممسحة
في فندق الشرق الكبير وقد تعودت بناهم الذل والارتقاء في أحضان من يأتي إلي هذا الوطن الفندق ١،
سواء كان خصياً أو أميراً» (الزغلول، ٢٠١٧: ٦١).

٢-٢-١-٢- تشوق الشعوب العربية إلى بطل منقذ

اتخذ الشاعر قيادة النبي لوط (ع) أسوة يطالب بمثلها في الوطن العربي، فيتشوق إلى ظهور قائد فارس
يتم على يده خلاص العرب من تحلفهم ثم انبعائهم من جديد. يتصف هذا الفارس بالشجاعة الفائقة،
فلا يهاب الأعداء (من غول وتنين) وفي هذا الوصف للقائد المنتظر يعرض الشاعر بالقيادات الراهنة،
فيصفها - مكنياً- بالجبن في مواجهة الأعداء والخوف منهم:

فارسٌ يمتشقُّ البرقَ على الغول/ على التَّينِ، ماذا هلْ تعودُ المُعْجزات؟ (حاوي، ١٥٨: ١٩٩٣)
الشاعر هنا، كأنه لا يصدّق ظهور هكذا قائد في عالم الواقع، لأنّه يلتجئ إلى عالم الأسطورة للتعبير
عن ذلك، ويعبر بلفظة المعجزة عن مراده وأمنيته بظهوره.

يستطرد الشاعر بعد ذلك إلى ذكر قائد فذ هو السيد المسيح (ع) وما حققه من نصر، حين ذكر
نوحه حافياً في وجه الطغاة؛ يريد الشاعر بذلك أن يرفع من معنويات الشعوب بتذكّار الماضي المجيد
وانتصاراتهن، وأنّ صاحب الحق سينتصر وإن لم يملك من أسباب القوة كثيراً:

بدويٌّ ضربَ القيصرَ بالفرسِ/ وطفلٌ ناصريٌّ وحفاة/ رَوَّضُوا الوحشَ بروما، سَحَّبُوا/ الأنيابَ مِنْ
فكِّ الطَّعَاةِ/ رَبِّ ماذا/ رَبِّ ماذا/ هلْ تعودُ المعجزات؟ (حاوي، ١٥٩: ١٩٩٣)

من هذا المنطلق البشير، يتواصل النظم التفاضلي، في التعابير التالية، فيصنّف الشاعر تاريخه من
أرجاسه وعمتمه وجحيم ذكرياته، ويتغنّى بالصبح هنا بخلاف صبح السدوميين، والهدف من ذلك،

صناعة مستقبل مشرق خصب تتفجر بينابيعه؛ فيرمز الشاعر إلى لزوم التخلص من الأفكار المتخلفة، والرجعية، ومن كل قديم لا يتماشى مع المستجدات الراهنة:

بِاسْمِ مَا أَحْرَقْتُ مِنْ نَفْسِي بِنَفْسِي / لِأُصْقِي وَجَهَ تَارِيحِي وَأَمْسِي / بِاسْمِ هَذَا الصَّبْحِ فِي "صَنِين" /
والعتمة خلفي وجحيمُ الذكريات: / لِيَحِلَّ الخِصْبُ وَلِتَجْرَ الْبِنَابِيعُ (حاوي، ۱۹۹۳: ۱۶۰)

يتحقق ذلك النهوض بفعل الأمل الكبير بالجيل الجديد المرتوي من الحب، والبعيد عن البغض والكراهة؛ ذلك الجيل الذي سيحقق النصر بعمله الدؤوب القريب من حد الإعجاز:

فَارِسٌ يُؤَلِّدُ مِنْ حَيِّي لِأَطْفَالِي / وَحَيِّي لِلْحَيَاةِ / لِتَحِلَّ المعجزاتُ / رَبِّ مَاذَا / رَبِّ مَاذَا / هَلْ تَعُوذُ
المعجزاتُ؟ (حاوي، ۱۹۹۳: ۱۶۰-۱۶۱)

في المقطع دلالة رمزية على أمل كبير بالمستقبل حيث تنهض قيادة حكيمة مؤهلة تأخذ بيد العرب إلى الطريق الصحيح. ويمكن ذلك النهوض بالأمور التالية؛ أولاً: بقيادة حكيمة تعرف أصول الحكم وقد كتى الشاعر عن ذلك بالفارس الشجاع في المعارك الذي سيحافظ على كيان الأمة، بعد الخلاص من القيادات الحالية. ثانياً: بشعوب عربية تتولد من جديد بأفكار جديدة ملؤها الحب والمحبة، بعد تخليها من العداة؛ ثالثاً: بالعمل الدؤوب القريب من المعجزة، بعد ترك الكسل.

اعتنى الشاعر خليل حاوي برسالة النبي لوط (ع) ودوره القيادي فيها وعلاقته بشعبه ليؤكد بشكل رمزي على أمور ثلاثة؛ الأول: على أنّ الشعوب العربية قد فقدت ثقافتها بنفسها فباتت خاضعة مقابل الظلم والجور لا تحرك ساكناً؛ الثاني: على ضعف القيادات في الوطن العربي؛ لانشغالها بالفسق والفجور. الثالث: على حاجة الشعوب العربية إلى قائد فذ يخلصهم من تخلفهم ويأخذ بهم إلى طريق الرقي والنجاح.

٢-٢-٢- الانحراف الجنسي

٢-٢-١- انحراف السدوميين الجنسي في التراث الديني

أشار القرآن إلى سبب الانتقام الإلهي من قوم لوط وهو انحرافهم الجنسي وشذوذهم المنكر في العلاقة مع الجنس المذكور. ذكر هذا السبب صراحة في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ﴾ (النمل/ ٥٤ و ٥٥) وفي الآية إشارة صريحة إلى علمهم بقبحها وشناعتها. كما ذكر السبب نفسه في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ ﴿٨٠ و ٨١﴾ في الآية إشارة صريحة إلى سبقهم العالمين في الخوض في هذا النوع من الانحراف الجنسي.

كما أشار الكتاب المقدس في الإصحاح ١٨ إلى هذه الخطيئة حيث قال: «وَقَالَ الرَّبُّ: إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ، وَخَطِيئَتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا» (التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الثامن عشر: ٢٠)

٢-٢-٢- الانحراف الجنسي في السدوميّات

شذوذ السدوميين الجنسي، وما فيها من شناعة أخلاقية عملية من جهة أخرى، وما تدلّ عليه من عقد سلبية في نفوس أصحابها من جهة ثانية، وبعدهم عن القيم الإنسانية من جهة ثالثة؛ كلّ هذه جلبت نظر الشاعر خليل حاوي فاستحضرها في شعره لموافقتها عقيدته السوداوية.

تطرق الشاعر إلى انحراف السدوميين ليحذر العرب من مغبة الولوج في المفاسد ويقوم بواجبه الإصلاحي بضرب مثل من أمثال الفاسدين وما آل اليه أمرهم من دمار وهلاك.

٢-٢-٢-١- إسقاط شذوذ السدوميين على الواقع الاجتماعي المعاصر

يعصرن الشاعر موضوع الانحراف الجنسي عند قوم لوط ويعطيه جانباً اجتماعياً وسياسياً. ففي الجانب الاجتماعي يقارن الشاعر بين حال الشعوب العربية الآن وأهل سدوم آنذاك؛ فالشرّ قد تمكّن من السيطرة على نفوس القومين سوياً.

في المقطع التالي يتّهم الشاعر أهله وإخوته من العرب بالتمادي في الفساد لسنوات طويلة، بحيث تولّد نسل جديد فيقول:

أهلي، إخوتي../نسل السبايا(حاوي، ١٩٩٣: ١٥٠).

كما يأسف الشاعر لهزيمة أهله العرب وانكسارهم بعد غزوات الأعداء عليهم، فصار الرجال منهم لوصفاً حقاراً والنساء بغايا رخيصات في سوق الدعارة:

خَلَقْتُهُمْ غَزَاوَاتِ الشَّرِّقِ وَالْعَرَبِ/ لُصُوصاً وَبَغَايَا(حاوي، ١٩٩٣: ١٥١).

بهذه الكلمات يصور الشاعر مدى التخلف الاجتماعي والإنفلات الخلقي، وهو تصوير في غاية اللذع والتهمك؛ لعله يصيب العرب في صميمهم فيفوقوا من سباتهم ويعودوا إلى رشدهم.

في القسم التالي، يواصل الشاعر خليل حاوي تحقير الشعوب العربية؛ فيعيّرهم بالعدم القدرة

على التعامل الجنسي الطبيعي وهي كناية تحقيرية تمسّ صميم العرب لأنه ينزّهم من منزلة الرجال؛ ثمّ يضيف كنيته لسعاً وإيلا ما أكثر حين يستحضر آخرين بدلمهم يقومون بواجب الرجولة:
لَنْ تَمُوتَ الْأَرْضُ إِنْ مُتُّمْ / لَهَا بَعْلٌ إلهِي قَدِيمٌ / طَالَمَا حَنَّتْ إِلَيْهِ عَبْرٌ لَيْلِ الْعُثْمِ... / أنثى والهة/ فَضَّهَا
الْبَعْلُ وَرَوَّاهَا / فَعَصَّتْ بِالرِّجَالِ الْإلهة/ (حاوي، ۱۹۹۳: ۱۵۳)

۲-۲-۲-۲-۲ إسقاط شذوذ السدوميين على الواقع السياسي المعاصر

تبلور إسقاط موضوع الانحراف الجنسي على الواقع السياسي المعاصر في اتهام الشعوب بعدم الشعور بالغيرة الناموسية أولاً؛ وفي اتهام القيادات بالشذوذ الجنسي ثانياً؛ والثالث حين اتهم تلك القيادات بالعقم والضعف الجنسي؛ ورابعاً حين طالب باستبدال تلك القيادات.
استعان الشاعر بموضوع الانحراف الجنسي للسدوميين للتعبير به عن الوضع السياسي المتأزم في الوطن العربي وعبر عن اللامبالاة وعدم الاهتمام بالسياسة عند الشعوب العربية بشكل مبطن وكناهي؛ وذلك حين اتهمهم بعدم الغيرة وعدم الإحساس بالكرامة الشرفية حين رأوا بناقهم معروضات للفاسقين فلم يحركوا ساكناً:

بنتهم تستمرئ الناب الذي يغرز... (حاوي، ۱۹۹۳: ۱۵۱).

كما اتهمهم الشاعر بعدم الغيرة الناموسية حين اعتبر نساءهم بغايا في سوق الدعارة في مقطع آخر:
خَلَقْتُهُمْ غزواتُ الشرق والغرب / لصوصاً وبغايا (حاوي، ۱۹۹۳: ۱۵۱)
وهاتان الظاهرتان الاجتماعية (تعريض البنات للفاسقين وامتهان النساء في سوق الدعارة) تدلان على عدم إحساس الشعوب بالمسؤولية حتى في القضايا الشخصية كالشرفية منها، ما يترتب عليهما بالأولى عدم الإحساس بالمسؤولية السياسية قبالة الوطن، والسيادة، والحكم.
واستحضر الشاعر الانحراف الجنسي للسدوميين حين اتهم القيادات السياسية في الوطن العربي بالانحراف الجنسي وممارسة الجنس خارج إطاره الطبيعي؛ وذلك حين ارتبطوا بالمتلهفات للجنس. والمرة الثالثة التي استحضر الشاعر الانحراف الجنسي للسدوميين كان حين اتهم القيادات بالضعف الجنسي والعقم في إشارة كنايية إلى أمرين، إلى العلاقة العقيمة بينهم وبين الشعوب العربية من جهة، وإلى عدم أهلية تلك القيادات للقيادة من جهة أخرى، لأنها قد افتقدت رجولتها:
... / وليكن ناب خصي / إن يكن ناب أمير (حاوي، ۱۹۹۳: ۱۵۱)
والمرة الرابعة، حين نادى وطالب بمنقذ فذ يخلص الشعوب العربية ويقودهم إلى الرقي. وقد تناولت

الموضوع بالبحث تحت عنوان «تشوق الشعوب العربية إلى بطل منقذ» آنفاً.

٢-٢-٣- الحكام وعقدهم المكبوتة

التمهيد السابق الذي جاء به الشاعر عن انشغال الشعوب العربية بالصغيرات من الأمور يكشف عن مدى بعدهم عن الاهتمام بالقضايا العامة والمصيرية كالقضايا السياسية وعلاقتهم بقيادتهم. فالشعوب العربية، على رأي الشاعر، لا تولي قضاياها السياسية اهتماماً كافياً وليس لها أي دور في اختيار الحكام. يحكم عليهم أمير صغير النفس يمارس الجنس خارج إطاره الطبيعي فيجامع البغايا والمتلهفات علي الجنس ويعاني من شذوذ جنسي كقوم لوط:

بتنهم تستمرئ الناب الذي يغرز/ في البض الحرير / وليكن ناب خصي / إن يكن ناب أمير
(حاوي، ١٩٩٣: ١٥١)

في هذا المقطع، يظهر تأثر الشاعر بقصة قوم لوط من ثلاثة جوانب؛ أولاً: من أنّ الشعوب العربية كقوم لوط فقدت كرامتها فلم يعد لها شعور بالكرامة الشرفية؛ فبناتهم معرّضة للفاسقين؛ ثانياً: ومن أنّ الحاكم في الوطن العربي يعاني من نقص جنسي كما كان قوم لوط يعانون من مشاكل جنسية، يعرض الشاعر بالقيادات الحاكمة الحالية ويعتبرها غير مؤهلة للقيادة التي تريد في مقدماتها رجولة ليست في تلك القيادات، فالأمير خصي؛ ثالثاً: ومن أنّ التعابير في سدوميّات خليل حاوي صريحة في دلالتها على الجنس بقبح فاضح، مثل: تستمرئ، الناب، يغرز، خصي، كما كانت أفعال قوم لوط غايةً في القبح والفضيحة.

في المقطع تحليل مبطن عن علاقة الشعوب العربية بحكامها التي تكوّنت على أساس الإملاء، والاستبداد، والدكتاتورية من قبل القيادات من جهة، والقبول، والتمكين، والانصياع من قبل الشعوب العربية من جهة أخرى. فالشعوب تنساق لكل ما يمليه عليهم السلطان وإن كان ممّا يتلاعب بكرامتهم وشرفهم. وفي إشارة خليل حاوي إلى عقم الحكام إشارة كناية إلى ضعف القيادات العربية التي فقدت رجولتها.

٢-٣- العذاب والانتقام الإلهي

٢-٣-١- صورة العذاب في التراث الديني

صّب القرآن أكثر اهتمامه في قصة قوم سدوم على ما حلّ بهم من سوء وعذاب نتيجة بغيهم وانحرافهم الجنسي. ذكر القرآن من العذاب: سببه، ووقته، وعدم الالتفات إلى الورا، والمطر من السماء، ودمار

القرية، وهلاك السدوميين. وقد صور القرآن هذه اللحظة ومراحلها تصويراً واضحاً للعظة والاعتبار في كثير من السور؛ منها سورة القمر حيث قال: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (القمر / ٣٤).

أما الكتاب المقدس فقد هدّد السدوميين بالهلاك على لسان الملكين المرسلين إلى النبي لوط (ع): وَقَالَ الرَّجُلَانِ لِلْوَطِ: «... اخرج من المكان، لأننا مُهلِكان هذا المكان، إذ قد عظم صراحُهم أمامَ الربِّ، فأرسلنا الربُّ لئلهلكهُ» (التوراة، سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: ١٣).

٢-٣-٢- صورة العذاب في السدوميات

أكثر حاوي من التطرق إلى عذاب السدوميين برؤية تشاؤمية، وفق ما جاء في التراث عنها. فقد أشار في قصيدته إلى المواضيع التالية وفق ما في التراث الديني؛ أولاً: أشار حاوي إلى زمن العقاب فقال: بأنّ العذاب حلّ بالسدوميين صباحاً، لذلك تكلم في سدوميته عن الصباح بنظرة متشائمة ووصفه بأوصاف سلبية ك: الصبح اللعين، وصباحاً شاحباً. ثانياً: أشار الشاعر إلى السماء، ورعدها، وبرقها، ومطرها وتكلم عنها طويلاً. ثالثاً: تكلم الشاعر عن المسخ إلى عواميد، ورابعاً: تكلم الشاعر عن الموت، والدمار، وما حلّ بالقرية من فناء؛ كل ذلك وفق المنقول الديني.

يضفي الشاعر على الموقف القائم كثيراً من السلبيات ولما يراه يتماشى مع ما في نفسه من رؤى تشاؤمية يشحن كلامه الشعري بكثير من المفردات السلبية والمفاهيم القائمة فيزداد الموقف الانتقامي الحزين سوداويةً وحزناً.

في المقطع التالي، يرمز الشاعر إلى الدمار الشامل الذي حرق كل شيء بعد نزول العذاب. النقمة السماوية لم تُبق على شيء من سدوم وأهلها، كما لم تترك لها بقية تقوم عليها في غدها. وقد أصبحت أرضها سبخة لا يمكنها أن تنمي نباتاً:

أَمْسِي اخْتِرَاقٌ / وَاخْتِرَاقٌ غَدِي / وَخُطُوَةٌ مُرْهَقَةٌ مُرْهَقَةٌ / تَهْمُ فِي الظَّنِّ وَلَا تَبْتَدِي / فِي سَبْحَةِ مَحْرُوقَةٍ
مُحْرِقَةٍ (حاوي، ١٩٩٣: ٥٥٩).

لا يبقى على أرضها شيء مستوٍ قائم؛ فالمصيبة عظيمة لا يقاومها شيء فيتساقط أمام جبروتها:

لا يلتقي ظلّ على أرضها / من عَيْمَةٍ أو نَبْتَةٍ مُورِقَةٍ (حاوي، ١٩٩٣: ٥٦٠).

الصورة القائمة عن المصيبة في التراث الديني وما حل من دمار واختراق صارت المنطلق الذي منه انطلق الشاعر ليحلّق في أجواء شعرية فيعبر عن شدة الاحتراق والدمار بأسلوب شعري فيه الكثير من

الإبداع. كلّ المظاهر الطبيعية - بعد الانتقام وعلى تعبير الشاعر- تحتوي على مفاهيم تتناقض مع ما نعرفه عنها. فالتراب الذي هو مبدأ الحياة، تحرقه النار فتقضي عليه؛ والحجر الذي هو رمز الصلابة والقوة تقضي عليه النار فيحترق أيضاً، حتى السحاب التي تبشّر بالحياة ونزول الغيث والمدد من السماء تلتهمها النار أيضاً فتقضي عليها فلا تقدّم خيراً:
يَحْتَرِقُ التُّرَابُ! / يَحْتَرِقُ الْحَجَرُ! / يَحْتَرِقُ السَّحَابُ (حاوي، ١٩٩٣: ٥٥٩).

٢-٣-٢-١- الصباح

٢-٣-٢-١-١- صباح الانتقام في التراث الديني

صوّرت الآيات زمن نزول العذاب حيث كان صباحاً؛ جاء في سورة القمر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (القمر/٣٤) ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ (القمر/٣٨). وقد تطرق الكتاب المقدس إلزمن العقاب حيث كان صباحاً كذلك: «وَمَعَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوعَرَ. ثُمَّ أَمَطَرَ اللَّهُ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كَثِيرَتًا مُلْتَهَبًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ السَّمَاءِ. فَدَمَّرَهَا مَعَ الْوَادِي كُلِّهِ، وَكُلَّ السَّاكِنِينَ هُنَاكَ، وَكُلَّ مَا نَمَا فِي الْأَرْضِ» (التوراة، سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: ٢٣-٢٥).

٢-٣-٢-١-٢- الصباح في السدوميّات

الصبح ظاهرة طبيعية تغنى بها الشعراء، باعتباره تمثيلاً للحياة والانبعث بعد رقدة، وسكون، وظلام حالك. لكنّه في شعر خليل حاوي، يتحول عن دلّته الإيجابية ليبدّل على معان سلبية:
سَوَّفَ تَبَقَى حَلْفَ مَرْمَى / الشَّمْسِ وَالتَّلْجِ الحزِينِ (حاوي، ١٩٩٣: ١٠٩).
حتى أشعة الشمس التي من طبيعتها الإنارة، وبسط الدفء، والحياة، وبداية اليقظة تتحول في سدوميّات خليل حاوي إلى ضدّها فتصير سهاماً تميت، كما تصير حرارة الشمس باردة كالثلج فلم تعد تُدفئ بجرارتها بل تجمد كالثلج.

في المقطع التالي، يلعن خليل حاوي الصبح ويتعامل معه بصورة سلبية ويقول:
هي ذكري ذلِكَ الصُّبْحِ اللّعينِ / كَانَ صُبْحًا شَاحِبًا / أُنْعَسَ مِنْ لَيْلٍ حَزِينِ (حاوي، ١٩٩٣: ١١١).
ذكري الصباح لا تبعث في الشاعر إلا إحساساً سلبياً شبيهاً بما يشعر به من أمر ملعون. فالصبح يفوق الليل تعاسة باشرافه الذي قد ملأ الأفاق سكوناً_ لا حركة_ على رأي الشاعر البتة.

بعد تلك الصورة القائمة عن الصبح، يجد الشاعر الأجواء المناسبة للتعبير عن رؤاه المتشائمة فيستحضر رموزاً سلبية ومشئومة كالحفافيش والبوم؛ ليضفي شؤماً أكثر على شعره:

كَانَ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَرْضِ سُكُونٌ / ثُمَّ صَاحَتْ بُومَةٌ، هَاجَتْ حَفَافِيشُ / دَجَا الْأَفُقُ أَكْفَهْرًا (حاوي، ۱۹۹۳: ۱۱۱).

البوم والحفافيش التي تختفي عادةً في الصباح؛ تظهر في هذا الصباح الذي يصوره خليل حاوي، فالصباح هذا على غير عادته من النور والإشعاع إذ هو قاتم أسود، لذا تظهر فيه مظاهر الشؤم هذه لما ترى لنفسها من مجال فيه. تم الحشد اللغوي للتعبير عن الشؤم إما بصورة صريحة كما في البوم، والحفافيش، والسكون، والدجا وإما بصورة مقلوبة المعنى كما في الصبح بعد تجريده من صفة الحركة والنشاط وتحميله معنى السكون.

۲-۳-۲-۲- السماء

۲-۳-۲-۲-۱- السماء في التراث الديني

أشارت سورة هود إلى أن السماء رمت السدوميين بحجارة متتالية كقطرات المطر المتتالية: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ * مَسْوَمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ﴾ (هود/ ۸۲-۸۳). وما كان هذا المطر إلا لجرمهم وعدوانهم ومخالفتهم طبيعة الإنسان وفطرته: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف/ ۸۴) وهذا المطر لم يكن بدون سابق إنذار ولم يكن مفاجأة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ (الشعراء/ ۱۷۳). وقد صرح الكتاب المقدس بذلك: «فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيَّتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنْ السَّمَاءِ» (التوراة، سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: ۲۴).

۲-۳-۲-۲-۲- السماء في السدوميات

وصف الشاعر السماء بأن الآذان تصطك من رعداها المخيف، وفيها سحب حمراء لم تمطر إلا جمرًا، وكبريتًا، وملحًا، وسمومًا:

وَدَوَّتْ جَلْجَلَةُ الرَّعْدِ / فَشَقَّتْ سَحْبًا حَمْرًا حَرَّى / أَمْطَرَتْ جَمْرًا وَكِبْرِيَّتًا وَمَلْحًا وَسُمُومًا (حاوي، ۱۹۹۳: ۱۱۲).

فالسحب التي تمثل الخير، والبركة، والإثماء؛ وبنظرها الناس بلهفة لتخفف عنهم مشاكل الحياة في

عالم الواقع، تتحول وتتبدّل إلى ضدها في سدوميّات خليل حاوي ولا تدلّ إلا على معان سلبية.

٢-٣-٢-٣-المسخ إلى عواميد

٢-٣-٢-٣-١-المسخ إلى عواميد في التراث الديني

استقى الشاعر فحوى المسخ من التراث الديني؛ جاء في سورة هود: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ (لوط/٨١).

وكذلك الكتاب المقدّس أشار إلى المسخ إلى عواميد من الملح: «والتفتت امرأة لوط إلى الوراء فصارت عمود ملح» (التوراة، سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: ٢٦).

٢-٣-٢-٣-٢-المسخ إلى عواميد في السدوميّات

بتأثير من هذا المضمون التراثي قال حاوي: قد تحولنا إلى عواميد ممسوخة من الملح، لا أهميّة لنا؛ فنحن وخلقنا عبث وبلاهة:

وإذا نحن عواميد من الملح،/مُسُوخٌ من بلاهاتِ السنين/ (حاوي، ١٩٩٣: ١١٢).

وهذا الرأي غاية في النظرة التحقيرية التي تطيح بالإنسان وكيانه حين يعتبر وجوده فضلة لا خير فيها، وبلاهة وغلطة في مسيرة الخلق. صورة الإنسان هنا، تدلّ على أسره، وعدم اختياره، وعدم قدرته على تحقيق أيّ انجاز.

٢-٣-٢-٤-الدمار والهلاك

٢-٣-٢-٤-١-دمار القرية وهلاك أهلها في التراث الديني

وكانت عاقبة السدوميين انقلاب قريتهم رأساً على عقب، فتخرّبت تماماً: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا...﴾ (الحجر/٧٤)، وفي سورة هود نشاهد صورة العاقبة نفسها: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...﴾ (هود/٨٢). كما وضّح الكتاب المقدّس تلك العاقبة فقال: «وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعِ سُكَّانِ الْمُدُنِ، وَتَبَاتِ الْأَرْضِ» (التوراة، سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: ٢٥).

٢-٣-٢-٤-٢-دمار القرية وهلاك أهلها في السدوميّات

يبدأ الشاعر بتصوير دمار القرية بالسيل العارم الذي فاض بعد مطر غزير، ففضى على مظاهر الحياة؛ وغدا براكين

جهنمية تغزو القرية فقتل أهلها وتمحوها من الوجود دون مبالاة:

كان صباحاً شاحباً/ أتعب من ليلٍ حزين/ كان في الأفق والأرض سكون/ ثم صاحت بومة،
هاجت خفافيش/ دجا الأفق أكفهرًا/ ودوت جلجلة الرعد/ فشقت سحبا حمراء حري/ أمطرت جمرا
وكبريتاً وملحاً وسموم/ وجرى السيلُ براكين الجحيم/ أحرق القرية، عراها،/ طوى القتلى ومراً(حاوي،
١٩٩٣: ١١١ و ١١٢).

الهلاك بهذه الصورة غاية في الدلالة على النهاية المأساوية؛ حيث البراكين الجهنمية تدك القرية وتدمر
بناياتها وتقتل أهلها.

يقول الزغلول شارحا لهذه القطعة:

«لقد اتسم ذلك الصباح التعس بالشحوب وقد عم الأرض وآفاقها سكون مريب. إنه السكون
الذي يسبق عادة هيجانا عظيما وقد زاد من توقع السوء صباح بومة وهيجان خفافيش ظهرت علي غير
العادة منذرة بجوم عظيم يحيق بهذه القرية. وسرعان ما عم الظلام وأكفهر الأفق ودوي الرعد وتشققت
السحب الحمراء الملتهبة عن جمر وكبريت وملح وسموم. فجري سيل براكين الجحيم محرقا في طريقه كل
أثر للحياة في القرية طاولا القتلي خلال مروره» (الزغلول، ٢٠١٧: ٥٦)

في المقطع التالي، استحضرت خليل حاوي صورة الانتقام مرة أخرى وقال بأن الموت قضى علينا
جميعاً؛ مات أصدقاؤنا الذين تسامرنا معهم طويلاً وذهبوا، كما الذكريات الجميلة التي كانت لنا معهم
قد ذهب فلم يبق منها شيء، حتى قلوبنا التي كانت عامرة نابضة بحبهم هففت نارها فلم تنبض بالحيوية
ولم يبق فيها إلا صمت وسكوت:

وتلفَّتْنَا إلى مَطْرَحٍ ما كَانَ لنا/ بيتٌ، وسماءٌ، وذكرى/ فإذا أضلُّعْنَا صَمْتُ صَخُورٍ/ وفراغٌ مَيِّتٌ
الآفاق.. صَحْرًا(حاوي، ١٩٩٣: ١١٣).

٢-٣-٢-٥- الاعتبار والعظة

٢-٣-٢-٥-١- الاعتبار بقوم لوط في التراث الديني

سوء عاقبة السدميين صارت ذكرى يذكرها الآخرون، يعتبرون بها ويستخلصون منها عبراً تفيدهم
في دنياهم وأخراهم. فآثارهم واضحة للعاقلين، جاء في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ﴾ (القمر/٣٥). وهي آثار على طريق المارة تجلب انتباههم ليل صباح كما جاء في سورة
الصفات: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ* وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الصفات/١٣٧-١٣٨).

أما الكتاب المقدس فقد كَرّر القصة مرّات ومرّات يكشف فيها عن جوانب من سوء السدوميين والانتقام الإلهي منهم والهدف من ذلك كله تذكير المؤمنين ليتّعظوا بعاقبة السدوميين.

٢-٣-٢-٥-٢-الاختبار بقوم لوط فيالسدوميّات

تعاطى الشاعر عاقبة السدوميين من منظور سلمي، إذ يمهد بخلق أجواء قائمة، فيتكلم عن الموت ثم يصوّر ما حلّ بالسدوميين وكيفية صيورتهم ذكرى فارغة لا خير فيها. فذكرياتهم لا تذكره بماض يشناق اليه لما فيه من مرارات، ولا تشعل في نفسه ما يتحسّر له لما فيه من معاناة:

ماتت البلوي ومُتنا من سنين/ سوف تبقي مثلماكانت/ لياي الميتين/ لا اذكّار يلهب الحسرة/ من حين
لحين/ (حاوي، ١٠٩: ١٩٩٣)

يذكر الشاعر كلامه في المقطع السابق عن الذكريات بأداة النفي الدالة على الهلاك والعدميّة، ليعبر عن شؤم الذكريات، والتأكيد على أنّها تختلف عن الذكرى الوعظية الحافلة بالتربية والإرشاد. الذكرى في بال خليل حاوي لا خير فيها فإنها لا تستطيع أن تنير فيه الحيوية والنشاط. كيف تستطيع الذكرى ذلك وهي من فراغ ميت يخلو من مظاهر الحياة كما تخلو الصحراء القاحلة منها. والذكريات المرّة لا تترك إلا بقايا ومخلفات من الرماد، والسواد:

بعض ذكرى/ أيّ ذكرى، أيّ ذكرى/ من فراغ ميّت الأفاق.. صحرا/ مسحت ما قبلها، ثم
اضمحلّت/ خلقت مطرحها طعم رماد/ مطرّح الشمس رماداً وسواد(حاوي، ١١٠: ١١١)
تكريس مفردات دالة على الشؤم من: الحسرة، وفراغ ميّت، ومسحت، وضمحلّت، وخلقت،
ورماد، وسواد؛ هذه المفردات المتتالية تكشف لنا عن جانب من نظرة الشاعر القائمة.

في التعابير التالية، يتوافق تعبير خليل حاوي مع التعبير القرآني من جهتين: فهو يعتبر آثار السدوميين على طريق المازة كما جاء في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ (الصافات/ ١٣٧) هذا من جهة، وأما من جهة أخرى، فقد اعتبر القرآن عاقبتهم آية ينظر اليها الناس فيعتبرون كما في الآية ٣٥ من سورة القمر فصوّر الشاعر عاقبتهم عظة وتذكيراً للناس كذلك:

إن تُذكّر عابّر الدرب/ بحال الميتين/ (حاوي، ١١٢-١١٣).

في المقطع التالي، يضيف الشاعر على الموقف من رؤيته المتشائمة أربعة أشياء؛ شيئاً من الفراغ فهي جوفاء، وشيئاً من عدم الأصالة فهي بلا أمس، وشيئاً من العدم والفناء فهي بلا يوم، وشيئاً من النسيان والخمول فهي بلا ذكرى:

لا تذكر، جوفاء/ بلا أمس، بلا يوم وذكرى (حاوي، ۱۹۹۳: ۱۱۳).

۳- النتائج

لقد استخدم خليل حاوي في قصصه الشعرية السدومية فن التناص مع التراث الديني، فجاء فيها بما نقله التراث الديني، مستغلاً تلك الأجواء للتعبير عن تشاؤمه؛ لذلك جاءت القصائد قائمةً سوداوية. بدأ الشاعر استحضار القصة بالبيان السلي والتعبير التشاؤمي في قصيدته الأولى، حيث جاءت مليئةً باليأس من تخلف العرب المعاصرين ثم غير الشاعر نظرتة في القصيدة الثانية حيث حملها كثيراً من الأفكار الإيجابية وعبر فيها عن أملها بمستقبل مشرق، لكنه غير رأيه مرةً أخرى في القصيدة الثالثة القصيرة حيث عاد فيها إلى معتقده المتشائم الأول.

عصرن الشاعر قصته التراثية بمقارنة عرب أمس وعرب اليوم وبما صب على المجتمع العربي المعاصر من توبيخ كما ورد في التراث عن توبيخ السدوميين. فنقد المجتمع العربي وبين سلبياته من تخلف، وركون، وانصياع للمستبدين.

كما نقد الواقع السياسي وضعف الحكام العرب وعدم أهليتهم للحكم والسيادة؛ وكان نقده لاذعاً؛ كما تطرق إلى العلاقة المريضة بين الشعوب العربية وحكامها المبتنية على الاستبداد والجور. اعتمد الشاعر في سرد القصة على التعبير الرمزي في كثير من المقاطع الشعرية. فالسدوميون رمز الشعوب العربية؛ ورسالة النبي لوط (ع) رمز للقيادات في الوطن العربي. احتوت السدومييات على نظرة سلبية ورؤية متشائمة. استحضرها الشاعر لما في القصة من أجواء حزينة تتلاءم ومعتقده الفكري السلي. برز تشاؤم الشاعر في تصاويره عن المصيبة خاصة عن مرحلة مابعد الانتقام الإلهي وما استخدم من كلمات سلبية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

التوراة المقدسة

إسماعيل، عزالدين (٢٠٠٧). الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية. الطبعة الأولى. بيروت: دار العودة.

بشيري، علي؛ متقي زاده، عيسي؛ روشن فكر، كبرى؛ و مقدسي، أمين (٢٠١٢). الصور الإشارية (التناصية) للموت عند خليل حاوي. مجلة العلوم الإنسانية الدولية، ٤(١٩)، ٧٢-٥٥. حاوي، خليل (١٩٩٣). الديوان. الطبعة الأولى. بيروت: دار العودة.

الزغلول، سلطان (٢٠١٧). البنية الفكرية في القصيدة. الطبعة الأولى. عمان: دار الآن ناشرون وموزعون.

شريم، جوزيف ميشال (١٩٨٧). دليل الدراسات الأسلوبية. الطبعة الثانية. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

عبدالرحمن يونس، محمد (٢٠١٧). أسطورة شهريار وشهرزاد في الخطاب الشعري العربي المعاصر. الطبعة الأولى. لندن: شركة E-Kutub البريطانية المسجلة في إنجلترا.

فهد الأسدي، صدام؛ عبدالحسين عامر، جعفر (٢٠١٦). شعر خليل حاوي بين الحضارة والأسطورة. حولية المنتدي، ١(٢٧)، ٣٩-١١.

محمد الزيادات، تيسير (٢٠١٤). التناص الديني في شعر محمد القيسي و خليل حاوي دراسة ونقد. مجلة القسم العربي بجامعة بنجاب، ٢١، ٨٤-٥٧.

منيف، عبدالرحمن (٢٠٠٣). بين الثقافة والسياسة. الطبعة الثالثة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ناظري، حسين؛ صديقي، كلثوم (١٣٩٠ش). بررسي نمود آگريستانساليسم در شعر خليل حاوي. دو فصلنامه فلسفي شناخت، ١(٦٤)، ١٢٧-١٥٧.

نجفي أيوكي، علي؛ يگانه، فاطمه (١٣٩٠ش). أشكال التناص الديني في شعر خليل حاوي. دراسات في اللغة العربية وآدابها، السنة الثانية(٦)، ١٣٩-١٧٠.

نخيرات، أحمد (٢٠١٥). إسقاط التجربة القصصية الإنجليزية على الواقع السياسي العربي في شعر

خلیل حاوی (قصیدتا لعازر ۱۹۶۲ والأم الحزينة نموذجاً). مجلة دراسات في العلوم الإنسانية،
۲(۲۱)، ۲۱-۳۸.